آدم

عليه السلام

لقد فاجأ الله الملائكة باعلان خلق آدم، ثم فاجأهم بأمر آخر لم يكونوا يتوقعونه أيضًا وذلك بأن أمرهم بالسجود لآدم فور خلقه:

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾.

وكان الملائكة أمام أمر صريح من الله لهم بالسجود. وكان هذا الأمر معللا واضحة أسبابه عند ذوى البصائر النورانية فما دام الله سبحانه قد سواه بيديه، وما دام الله سبحانه قد نفخ فيه من روحه، فإنه كائن لا شك شريف لقد كان الأمر بالسجود معللاً مسببًا..

وهب أنه لم يكن معللاً ولا مسببًا، وكان الأمر من الله مجردًا عن ذكر الأسباب والعلل ماذا كنت تظن الملائكة فاعلين ؟

إن طبيعتهم النورانية، وتقديسهم لله سبحانه تقديسًا تاما يفرضان عليهم، فى صورة انبعاثية تلقائية، استجابة الأمر الإلٰهى..

obeikandl.com

ومن أجل كل ذلك كانت الاستجابة من الملائكة فورية..
﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾.

وكان مختلطًا بهم من يعبد الله على حرف - وهو إبليس - كان يعبده سبحانه فى زهو وخيلاء، فى فخر وكبرياء، وينتظر من وراء ذلك مدحًا وتكريمًا، ولم تكن عبادته خالصة لوجه الله وإنما كانت مراءاة ومباهاة.

فلما صدر الأمر الإلهى وكان عامًّا لجميع الموجودين، لم يسجد وخالف الأمر مع علمه بأن الأمر يشمله، بقوله تعالى:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾.

وهذه الآية الكريمة تبين فى صراحة صريحة أن إبليس كان من الجن وأن الأمر كان له أيضًا لأنه أمر للجميع.. وأنه فهم أن الأمر له، ولكنه فسق عن أمر ربه، أى خرج عن أمره سبحانه بترك السجود. يقول الإمام البيضاوى فى تفسير هذه الآية:

«وفيه دليل على أن الملك لا يعصى البتة، وإنما عصى إبليس لأنه كان جنيًّا فى أصله».

ولابد لنا من وقفة عند هذا الموضوع:

إن سيدنا موسى عليه السلام اجتمع بأبينا آدم عليه السلام فى الملأ الأعلى فكان من حديثه معه:

«أنت آدم أبو البشر الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته».

وهذه الكلمات التى هى تمجيد لآدم ذكرت فى حديث آخر فقد ذكر الشيخان: البخارى ومسلم عن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون له فيما يقولون:

أنت أبو البشر خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته..

ولقد فهم الجميع أن هذه الأوصاف كلها تشريف لآدم عليه السلام وهى كذلك فعلا ولكنها أيضا تشريف للجنس البشرى كله فى صورة آدم، فهذه النفخة الإلٰهية فى أبينا آدم هى نفخة فى كل ذريته، إن كل فرد من أفراد ذرية آدم فيه من هذه النفخة الإلٰهية نصيب.. إن فينا جميعًا نفخة من روح الله:

وسجود الملائكة إذن لم يكن سجودًا لجسم آدم الذى هو من طين، وإنما كان سجودًا:

١ - لبديع صنع الله سبحانه..

٢ - ولهذا القبس من روح الله فى آدم.

٣ - وللأمر الإلهى الصريح لهم بالسجود..

وسجودهم إنما كان – إذن – لله سبحانه، والسجود لله دائما تشريف للساجد، لقد سجد الملائكة ولم يسجد إبليس..

ما مغزى ذلك؟

لقد سجدت الملائكة ولم يسجد إبليس، ويعبر الله سبحانه عن ذلك بقوله

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾..

ويبين الله سبحانه السبب الأصيل لعدم سجوده فيقول:

﴿إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾.

أما التعلة الكاذبة التى تعلل بها إبليس، وأما المنطق المزيف الذى توهم إبليس أنه عار له فى عدم السجود فهو قوله:

﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾.

ونقول : إنه منطق مزيف، لأن إبليس جعل مناط الخيرية المادة والجسم مع أنها فى أبسط مبادئ العقول ترجع إلى الروح التى هى النفخة الإلهية لا إلى المادة التى لا قيمة لها فى موازين الخير.

وهذه القصة التى نمر عليها فلا نكاد نعيرها التفاتا، جديرة بالتأمل والاعتبار..

والقضايا التى نريد أن نذكرها عظة واعتبارا، وهى فى نفس الوقت ذات دلالات عميقة: هى ما يلى:

١ – لقد صدر أمر إلهى بالسجود، فاستجاب له طائفة، فنعموا برضوان الله، وشذ فرد، فطرد من رحمته سبحانه..

٢ – انه طرد، لانه لم يستجب للامر الالٰهى مع علمه بأنه أمر الٰهى.

٣ – كان عدم استجابته ناشئا عن كبرياء فى نفسه، وعن تمرد فى فطرته..

٤ – لم تلغ عبادته كبرياءه، فهى اذن لم تكن خضوعا، لأنها لو كانت خضوعا، لنفت الكبرياء وأزالتها، انها اذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح لأن العبادة والكبرياء: لا تجتمعان..

هذه الكبرياء كما تمثلت فى مخالفة الامر الالهى، تمثلت فى المحاولة التى أراد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه.. مستنجدا بمنطقه وعقله قائلا:

﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾.

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى، ومنطق الكبرياء، فسجوده لآدم ليس عبادة له وإنما هو عبادة لله لأنه خضوع لأمر الله، وحسب..

٦ – والمغزى لما سبق وهو ما يرشد إليه روح القصة، بل وتعبيرها، إنه عند الأمر الإلهى: يجب أن تكون الاستجابة فورية، وربما كان هذا هو ما ترشدنا إليه فى صراحة كلمة: إذ فى قوله تعالى ﴿ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك﴾..

وهذه الفورية طبعا هى فى كل أمر بما يناسب وضعه الزمانى والمكانى.

٧ - والقضية التى تختتم بها هذه القضايا، أو هذه المفاهيم المستنتجة من القصة هى: أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول فليس معنى ذلك إلا التصريح الصريح بأن طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافى للرقى من مدارج السمو الروحى، درجة فدرجة، حتى تسمو على الملائكة وعلى الجن، ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهى للملائكة والجن بالسجود للإنسان لأن يختلف علماء الإسلام فى المفاضلة بين الإنسان والملك فإن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنتهى إلى حد:

«ما وسعنى أرضى ولا سمائى، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن».

وباب الفيوضات الإلٰهية مفتوح على مصراعيه، والقرب منه ميسور وإذا ما سجد الإنسان لله، رفعه الله إليه، وقربه منه وغمره برضوانه.

إن المبدأ الهام الذى نريد أن يجعله كل مؤمن نصب عينيه هو: الإيمان ليس معرفة وحسب: ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود وقد عرف فيما بعد أنه أرسل نوحًا وإبراهيم ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام.. أنه يعرف أن لا إلٰه إلا الله، ويعرف أن محمدًا رسول الله ويعرف أن عيسى وموسى وبقية الأنبياء رسل الله، ومعرفته بهذه المسائل هى من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين..

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله: ذلك أن الإيمان ليس معرفة فحسب، إنما خشوع واستجابة: إنه سجود، فإذا لم يتأت السجود فلا إيمان. يشهد لذلك قوله تعالى:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾. (النساء آية: ٦٥).

لقد كان سعيد بن جبير رضى الله عنه يقول:

ما آسى على شىء من الدنيا إلا على السجود.

أما على بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمونه «السَّجَّاد» لكثرة سجوده.. وقد كان يكثر من السجود - كما هو المتبادر إلى الذهن ليكون على النقيض من إبليس.

وما من شك فى أن السجود بمعناه الحقيقى - أى سجود القلب والجوارح لله تعالى - إنما هو استجابة لله سبحانه وخضوع له وهو بهذا المعنى يقود الإنسان إلى الجنة..

يروى الإمام مسلم، رضى الله عنه، فى صحيحه، عن أبى فراس ربيع ابن كعب الأسلمى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أهل الصفة - رضى الله عنه - قال:

كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآتيه بوضوئه وحاجته فقال: سلنى فقلت: أسألك مرافقتك فى الجنة.. فقال: أو غير ذلك قلت: هو ذلك.. قال «أعنِّى على نفسك بكثرة السجود».

والسجود إذن: مما يعين على ترويض النفس لتتزكى، وهو بذلك من الوسائل التى توصل إلى الجنة..

وفى هذا المعنى يروى الإمام مسلم أيضًا: عن أبى عبد الرحمن ابن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: عليك بكثرة السجود فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة.

والسجود الذى يريده رسول الله، صلوات الله عليه، والذى ورد فى هذه الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة، وإنما هو - مع هذه الحركة - المعنى العميق فى النفس الذى يتمثل فيه جلال الله وعظمته، ورحمته ووده، ويتمثل فيه الخضوع لهذا الجلال، وهذه العظمة، والانقياد المطلق لرحمة الله التى تتمثل فى الرسالة الإسلامية: أوامرها ونواهيها..

فإذا ما كان السجود تعبيرًا عن التطامن والتذلل لله سبحانه وتعالى، وذلك هو معناه الصحيح، عندما يكون السجود عبادة ويكون خضوعًا له سبحانه.. فإنه يكون سبيلاً إلى الجنة وإلى أكثر من الجنة وهو القرب من الله سبحانه، يقول الله تعالى:

﴿واسجد واقترب﴾. أى اقترب من الله بالسجود.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»..

وهذا المعنى للسجود هو الذى حققته الملائكة وهو الذى أباه إبليس لم يسجد إبليس بسبب كبريائه، لقد أبى واستكبر وكان من الكافرين. وقادته

كبرياؤه إلى الإصرار على ما فعل: مبررًا له، ولو أنه رجع إلى نفسه فندم واستغفر وتاب لقبل الله توبته، ولكنه عاند وأصر فطرده الله من رحمته ووده، وأخرجه من رياض رضوانه ورأفته، حارمًا إياه من نعمه، وقال له:

﴿فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾. (الاعراف: ١٣).

ويعبر الله عن ذلك بصورة أخرى تشرح نسقًا آخر من الخطاب الإلهى له:

﴿فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾. (الحجر آية: ٣٤ - ٣٥).

يقول الإمام ابن كثير:

وقوله تعالى لإبليس: ﴿اهبط منها﴾ و ﴿اخرج منها﴾ دليل على أنه كان فى السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التى كان قد نالها بعبادته، وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه، فاهبط إلى الأرض مذمومًا مدحورًا: أى مذمومًا مطرودًا.

وإلى هنا كان يمكن أيضًا أن يلجأ إبليس إلى الله منيبًا مستغفرًا، وذلك أن الله سبحانه، وان كان قد صب عليه اللعنة فإنه سبحانه حددها بيوم الدين.

وقد كان من الممكن لو رجع إبليس إلى الله أن يعفو عنه سبحانه بعد يوم الدين.

ولكن إبليس أصر أيضًا ولجَّ فى عناده، والتمس من الله أن ينظره إلى يوم يبعثون: أى إلى نهاية العالم..

ماذا يريد من وراء ذلك؟

إنه يوضح غرضه فيقول:

﴿لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (الحجر آية: ٣٩-٤٠).

ويوضح أيضًا غرضه فيقول:

﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (الأعراف آية: ١٦-١٧).

ومنذ هذه اللحظة بدأت فى العالم - بالنسبة للإنسان - محاولة لا تفتر لقيادة الإنسان إلى المعصية والإثم والجريمة.

لقد بدأ الصراع بين الخير والشر منذ تلك اللحظة.

ولكن رحمة الله سبحانه قد أدركت الإنسان منذ أن وجد، وذلك بأن فتح له سبحانه باب المغفرة والعفو والرحمة، وذلك عن طريق التوبة: التوبة الخالصة النصوح..

إن الله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى: وفى أسلوب أرق ما يكون الأسلوب:

« ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم».

ويقول تعالى فى القرآن الكريم:

﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ (الزمر آية: ٥٣-٥٤).

يغفرها سبحانه بالتوبة الخالصة النصوح.

هذا ما كان من شأن إبليس.

* * *

لقد فاجأ سبحانه الملائكة بقوله:

﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾

وفاجأهم بقوله:

﴿اسجدوا لآدم﴾.

- ثم فاجأهم بأمر ثالث: وذلك أن الله سبحانه حينما خلق آدم لم يخلقه على سنة الخلق التدريجى نطفة فمضغة، فعلقة، فوليدًا فطفلاً يتدرج

مع المعرفة بتدرج الزمن، ويكتسب على مر الزمن ما يحتاج إليه من معرفة تختلف تفصيلاً واجمالاً بحسب حاجته وظروفه: كلا إنه لم يخلقه كذلك، وإنما سوّاه ونفخ فيه من روحه فنشأ خلقه مكتملاً.

هذا الخلق المكتمل تتردد فيه النفخة الإلٰهية نضرة يانعة تتألق بالمعرفة الروحية وتنعم بمشاهدة الملأ الأعلى.

أما عالم الأرض فلم يكن عند آدم عليه السلام من علمه قليل ولا كثير.

- ومن أجل ذلك.. واعدادًا له ليكون صالحًا للإقامة على وجه الأرض علمه سبحانه الأسماء كلها.

يقول ابن عباس رضى الله عنهما:

«هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر وجبل، وجمل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها» اهـ.

ويؤيد الإمام ابن كثير رأى ابن عباس فيقول:

والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها، مكبرها ومصغرها كما أشار إليه ابن عباس رضى الله عنهما. ولما كانت الملائكة إنما خلقوا للسماء كان مثلهم مثل آدم فى مبدأ أمره، يجهلون شئون الأرض.

ومن أجل ذلك كانت المفاجأة الثالثة لهم حين طلب إليهم سبحانه إخباره بأسماء الأمور التى تتعلق بعالم الأرض فقالوا:

﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ (البقرة آية: ٢٣).

وهنا أمر الله آدم بأن يقف منهم موقف المعلم قائلاً:

﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ (البقرة آية: ٢٤).

وفى هذه المفاجأة الثالثة، إشارة للملائكة، وتنبيه للبشر إلى شىء من حكمة الله تعالى فى خلق الإنسان، وهذه الحكمة هى المعرفة، المعرفة المتكاملة، والمعرفة بعالم السماء وعالم الأرض، المعرفة بالطبيعة وبما وراء الطبيعة.

إن من الحكمة فى خلق الانسان أن يوجد المخلوق المتكامل، المخلوق الذى فتح الله له آفاق المعرفة الدنيوية والمعرفة الأخروية، بأن منحه الوسائل لذلك وهى البصر والبصيرة.

ولقد أطلق الله سبحانه له العنان ليسير بوسائله التى منحها إلى ما لا حدود له، وإن من أجمل شكر الله على منحة الخلق والحياة أن يتزود الإنسان بالمعرفة وأن يتحلى بالعلم، وشعار المسلم هو شعار رسول الإسلام:

﴿رب زدنى علمًا﴾.

روى الإمام الترمذى فى حديث صحيح عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم

على قبر الأرض: جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن (أى الصعب) وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك».

أما كلمة آدم فقد تعود الناس أن يقولوا فى سبب التسمية بها: إنه سمى بآدم لأن جسده خلق من أديم الأرض أى وجهها، أو لأن لونه يميل إلى السمرة، يقال رجل آدم، أى مائل لونه إلى السمرة.

- أما الرأى الجميل فى سبب التسمية فهو أنه سمى بذلك:

لما طيب به من الروح المنفوخ فيه، المذكور فى قوله تعالى:

﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الإسراء آية: ٧٠).

ومن ذلك من قولهم «الإدام» وهو ما يطيب به الطعام.

- ولقد استشار رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الزواج فقال له:

«لو نظرت إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما».. أى يؤلف ويطيب.

- فالتسمية بآدم على هذا الوجه الذى نرتضيه إنما هى إشارة وتوجيه نحو التحلى بالكمال المستطاع، وذلك بالخلق وبالعقل، وبالفهم والرواية، وبكل حسن طيب.

وأنزل الله آدم فى دار ضيافته وهى الجنة، وحيدًا فريدًا لا أنيس له، فكان يمشى فيها كما يقول ابن عباس، وابن مسعود وغيرهما رضى الله

عنهم: مستوحشًا، ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة، فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟

قالت: امرأة.

قال: ولم خلقت؟

قالت: لتسكن إليّ.

ويتابع ابن عباس القصة فيقول: فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟

قال: حواء.

قالوا: ولم كانت حواء؟

قال: لأنها خلقت من شيء حي.

وعن هذه القصة الجميلة تتتابع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

- فلقد بين الله سبحانه حكمة خلق المرأة وحكمة الزواج، فركز الهدف فى سكن النفس أى طمأنينتها، وفى المودة وفى الرحمة بين الزوجين فقال:

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الروم آية: ٢١).

– ليس الزواج فى الإسلام صفقة تجارية أو استغلالاً من أحد الطرفين. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: فاظفر بذات الدين.

وإنما هوسكن ومودة ورحمة.

– كان آدم وحواء مبدأ الخلق الإنسانى وكانا فى الجنة منعمين: كيف خرجا منها؟

قال الله تعالى لآدم:

﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ (الأعراف آية: ١٩).

أباح الله لهما أن يستمتعا فيها بما شاءا من روح وريحان، ومن فاكهة وأزهار، وضمن الله له أن لا يجوع فيها ولا يعرى، أى لا يتألم باطنه ولا ظاهره بالعرى، وضمن له أن لا يظمأ فيها ولا يضحى، أى لا يتألم من حر الظمأ فى الباطن، ولا من حر الشمس على ظاهره.

ولكن الله سبحانه وتعالى حدد لهما شجرة معينة وأمرهما بأن لا يقرباها. وما من شك فى أن عالم الإطلاق إنما هو عالم الألوهية، أما عالم الإنسان فإنه عالم الحدود والقيود.

بيد أن حدود الإنسان الدينية وتكاليفه التى أوجبها الله عليه إنما هى حدود من أجل رقيه وكماله، وكلما التزم الإنسان ما أحبه الله منه كان سائرًا نحو الكمال والصفاء والطهر.

وأنه لمن المعروف أن آدم – وهو سائر على ما أحب الله من الامتناع

عن الأكل من الشجرة – كان ينعم هو وزوجته بطمأنينة النفس، وراحة البال وهدوء الضمير، كما ينعم بذلك أصحاب الضمائر النقية، والسرائر الصافية..

لقد كان يقضى حياته ناعمًا بسعادة البراءة وسكينة الأطهار مع رفيقة حياته وأصحاب هذه الحياة – حياة البراءة – لا يرون عورة، ولا يحسون بالخجل يغمرهم من أجل سيئة.

أترى الطفل يحس بذلك؟

إنهم – وهم فى براءة الأطفال – لا يشعرون بخزى، ولا ينوء ضميرهم بتأنيب.

وكان آدم وحواء على ذلك حتى وسوس إليهما إبليس. لقد وسوس إليهما حتى يخرجهما عن براءة الطهر ونقاء العصمة، فيريا ما لم يكن قد أتيح لهما رؤيته من الشر والقبح، والعورات والسوءات، وحتى يشعرا بما لم يتأت لهما الشعور به من قبل، من تأنيب ومن شقاء بالمعصية. وإن صاحب السيرة السيئة معنى أبدًا بأن يجر الآخرين إلى مستواه، وأن ينزل بهم إلى حضيضه، وأن يهوى بهم إلى مزالقه.

لقد وسوس إليهما الشيطان آتيا من جانب الضعف فى الإنسان، وهو حب الخلود، وحب الملك، وقال لهما متسائلًا مستفسرًا متجهًا لآدم:

﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يَبْلى﴾ (طه آية: ١٢٠).

وأتى لهما فى صورة الناصح، وأقسم لهما على إخلاصه وصدقه ونصحه: فصدقاه.

صدقاه أولا: لأنهما فى براءتهما اعتقدا إخلاصه ونصحه، وصدقاه لأن ميولهما كانت إلى الخلود والملك كميول الأفراد من بنى جنسهم.

وأكلا من الشجرة المنهى عنها، وزالت عنهما مباشرة براءة العصمة وسكينة الطهر وأحسا بشقاء المعصية وعذاب الإثم. ويقول الله تعالى معبرًا عن ذلك:

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ (الأعراف آية: ٢٢).

وكان هذا أول نجاح لإبليس فى عالم الإنسان، بيد أن نجاحه انقلب إخفاقًا، وإذا كان قد فرح بنجاحه فإن فرحه لم يطل.

* * *

لقد حل بآدم وحواء الشقاء بسبب أكلهما من الشجرة، وأخذ آدم يجرى فى الجنة من مكان إلى مكان بائسًا حزينًا، وهو أينما حل يسمع النداء الإلهى يتردد فى جنبات الجنة، ويخترق أذنيه رهيبًا مدوّيًا:

﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾. (الأعراف آية: ٢٢).

ويجرى آدم فى الجنة، وتتعلق بشعره الأشجار. أو يتعلق شعره بها، ولكنه يسمع النداء الإلهى من جديد:

«أفرارًا منى يا آدم؟».

فيقول فى خجل وفى حزن: «بل حياء منك يارب».

لقد شقى آدم بالمعصية وكذلك يشقى كل عاص بسبب ما اقترف من الإثم. روى الترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

لا تصيب عبدًا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه. أكثر، ثم قرأ: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾.

وروى الطبرى وابن عساكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«والذى نفسى بيده ما من خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

ومن الرموز الجميلة فى قصة آدم، ما رواه ابن عساكر عن مجاهد قال: «أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره، فنزع جبريل التاج عن رأسه، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه يقول: العفو، العفو، فقال الله: أفرارًا منى؟

قال: بل حياء منك يا سيدى.

ولجأ آدم إلى الله مستغفرا نادمًا منيبًا، فلما كان كذلك تاب الله عليه،

يقول سبحانه: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم﴾ (البقرة آية: ٣٧).

أما هذه الكلمات التى اتجه بها آدم إلى الله فكانت نتيجتها توبة الله عليه فهى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف آية: ٢٣).

وقد رويت فى ذلك كلمات لا تخرج عن هذا المعنى منها ما قاله مجاهد: «الكلمات هى: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين.

اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم».

لقد كانت نتيجة التجاء آدم إلى الله هى ما عبر عنه بقوله: ﴿ ثم اجتباه ربه، فتاب عليه وهدى ﴾ (طه آية: ١٢٢).

وإنه لقانون إسلامى عام، أن من ارتكب المعصية ثم رجع إلى الله فى إخلاص وصدق، فإن الله سبحانه وتعالى يفتح له أبواب توبته.

عفا الله عن آدم حين التجأ إليه، ولكنه سبحانه لم يبقه فى الجنة، وإنما أنزله إلى الأرض قائلا:

﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ (الأعراف آية: ٢٤).

أكان نزوله إلى الأرض عقابًا حقيقيًّا؟ أم كان نتيجة لسبب ظاهر شكلى؟ أكان أكله من الشجرة معصية حقيقة؟ أم هى مقادير رتبت من أجل نتيجة أرادها الله سبحانه، وهى عمارة الأرض؟

لقد قال الله للملائكة من قبل خلق آدم: ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ إنه سبحانه لم يقل: إنى جاعل فى الجنة خليفة، أو إنى جاعل فى السماء خليفة، وإنما قال:

﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾.

وهذه الجملة حددت مصير آدم: إنه الأرض.

ومن أجل ذلك تحدث علماؤنا فى الموضوع، ورويت فيه آثار. من ذلك ما رواه خالد الحذاء، قال:

خرجت خرجة لى فجئت وهم يقولون: قال الحسن: فلقيته فقلت:

يا أبا سعيد، آدم للسماء خلق، أم للأرض؟

فقال: ما هذا يا أبا منازل؟ للأرض خلق.

قلت: أرأيت لو اعتصم فلم يأكل من الشجرة؟

قال: للأرض خلق، فلم يكن بد من أن يأكل منها».

ومن أجل الآراء فى قصة آدم وأعمقها رأى الإمام أبى الحسن الشاذلى: لقد شعر أبو العباس المرسى فى يوم بضيق شديد ولم يعلم له سببًا، فذهب

إلى أبى الحسن الشاذلى، فلما رآه الشاذلى قال له مباشرة:

آدم خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم - خمسمائة عام - ثم نزل به إلى الأرض.

والله ما نزل بآدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به الأرض ليكمله. ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله:

﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾.

وما قال فى الجنة ولا فى السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توافرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة.

وأنت أيضًا لك قسط من آدم، كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة المعارف، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف، فلما توافرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة.

والناس على مر الزمان يعتمل فى نفوسهم نوع من الأسف على الأكل من الشجرة، وقد كانوا يتمنون أن آدم لم يكن قد أكل منها حتى يكونوا فى الجنة حيث النعيم والسعادة.

ولقد عبر سيدنا موسى، حينما التقى فى عالم الأرواح بسيدنا آدم، عن أسف الناس قائلاً:

أنت آدم الذى خلقك الله بيده وأسكنك الجنة، وأسجد لك ملائكته، ثم صنعت ما صنعت؟

ولم يلتزم سيدنا آدم الصمت، وإنما قال متسائلًا:

أنت الذى كلمه الله، وأنزل عليه التوراة؟

قال: نعم.

قال: فهل تجده مكتوبًا على قبل أن أخلق؟

قال: نعم.

وكانت الغلبة فى النقاش لآدم عليه السلام.

* * *

وقبل أن نترك موضوع آدم عليه السلام نعرج على مسائل تساءل عنها الأقدمون ويتساءل عنها أيضًا كثير فى الأوساط المعنية بالدين، منها مثلًا السؤال التالى:

- هل كان آدم نبيًّا، أم أنه لم يصل إلى مرتبة النبوية؟

لقد جال هذا السؤال فى ذهن الصحابى الجليل أبى ذر، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتحدث هو عن ذلك فيقول:

قلت يا رسول الله: كم الأنبياء؟

obeikandl.com

قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا.

قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟

قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير (أى عدد كثير).

قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟

قال: آدم..

قلت: أو نبيًّا كان؟

قال: نعم، نبى مكلم..

وفى الحديث الشريف تفرقة بين الأنبياء والرسل..

ولعل القارئ الكريم يتساءل: وما الفرق بين النبى والرسول؟

والفرق بينهما أن النبى لا يأتى بشرع جديد، وإن كان يلهم من قبل الله ويوحى إليه.

أما الرسول فإنه يأتى بشرع وكتاب وصحف، ويبشر بمبادئ جديدة أوحاها الله إليه.

ومن هنا كان الرسل أقل فى عددهم من الأنبياء.

هذا: والأمر الثانى الذى نريد أن نتحدث عنه هو أمر يثيره حب الاستطلاع فى بنى البشر.

لقد تساءل قوم عن شكل آدم ومكانته من ناحية الجمال الجسمانى: وإنه لمن المعروف المتداول بين الناس، وتؤيده الآثار والأخبار أن يوسف عليه السلام كان غاية فى الجمال.

فهل كان آدم عليه السلام مثله أو أقل منه؟

والإمام ابن كثير يثير الموضوع ويقول:

قال بعض العلماء فى قوله صلى الله عليه وسلم:
.. فمررت بيوسف (أى ليلة الإسراء) وإذا هو قد أعطى شطر الحسن.

قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام (لأن الشطر هو النصف).

يقول ابن كثير: «وهذا مناسب، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء».

أما العبرة الأخيرة التى نأخذها من قصة آدم فهى أن الله سبحانه أشار غير مرة فى القرآن الكريم أنه خلق بنى البشر جميعًا من نفس واحدة، هى آدم عليه السلام وأنه جعل من هذه النفس نفسًا أخرى هى حواء ليسكن إليها، وأنه بث منهما رجالاً كثيرًا ونساء.

هذه الإشارات المتكررة التى ذكرها الله فى القرآن، إنما كانت ليدل الله بها على أنه لا عبرة بالأنساب، وإنما العبرة بالعمل والتقوى، ومن بطؤ به عمله لم يسرع نسبه.

وإن أكرمكم عند الله أتقاكم..

كلكم لآدم وآدم من تراب.

يقول الله تعالى:

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء﴾ (النساء آية: ١).

كيف بث منهما رجالاً كثيرًا ونساء؟ لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث صحيح فى كيفية الزواج والتناسل فى المبدأ، ولم يرد فى ذلك تفصيل فى القرآن الكريم، ولكن روى عن كثير من الصحابة تفصيل فى ذلك نرويه على ما ورد، إذ ليس ما يمنع من الدين أو العقل تصديقه.

ومجمل الأمر:

أنه ما كان يولد لآدم عليه السلام مولود ذكر إلا ولدت معه أنثى فكان يزوج غلام هذا البطن فتاة البطن الآخر، ويزوج فتاة هذا البطن غلام البطن الآخر.

وقد انجبت حواء بطونًا كثيرة توائم، ذكرًا وأنثى، ومن هنا كثر التناسل وعمرت الأرض وبمجرد أن شب الفتيان والفتيات بدأ التنافس والحسد بين الخير والشر.

وإذا كان آدم قد استعصى على إبليس بعد توبته الخالصة النصوح..

وإذا كان بعض بنى آدم من ذوى الفطر الطاهرة قد استعصى على إبليس أيضا فإن البعض الآخر من بنى آدم قد استجاب لتسويل إبليس.

ويصور القرآن أول جريمة قتل وقعت فى العالم على النسق التالى:

كان لآدم ابنان: هما قابيل وهابيل، وكان قابيل وهو الأكبر قاسى القلب غليظ الطبع لا يستشعر التقوى، ولا يتحرك للصالحات، وكان هابيل وهو أصغرهما على العكس من ذلك، تقيًّا صالحًا مرضيًّا عنه من الله تعالى، وتنافسا فى تقديم ما يتقرب به إلى الله، وقدم قابيل شيئًا تافهًا رديئًا لا قيمة له، وقدم هابيل من أنفس ما عنده فتقبل الله من هابيل، ولم يتقبل من قابيل، فحز ذلك فى نفس قابيل.

فقال لأخيه: لأقتلنك.

فكان جواب هابيل: نصيحة يسديها إلى أخيه يوجهه بها إلى عمل الخير.

﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

وما أراد بذلك هابيل إلا أن يوجه أخاه إلى الطريق لمرضاة الله وتقبله للعمل وهو التقوى، ثم قال محاولاً بقوله إرشاد أخيه إلى خشية الله:

إذا هممت بقتلى، ومددت يدك لذلك فإنى لن أحاول قتلك ولن أتعمده لأنى أخاف الله رب العالمين.

﴿لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك: إنى أخاف الله رب العالمين﴾ (المائدة آية: ٢٨).

وذكره بعد ذلك بأن القتل إثم عظيم يتحمله القاتل فوق ما اقترف من إثم سابق وأن القاتل جزاؤه النار، والنار جزاء كل ظالم.

ولكن قابيل لم يرق قلبه، ولم يخشع فؤاده، وطوعت له نفسه قتل أخيه وهو ابن أمه وأبيه، فقتله وأصبح بذلك من شيعة إبليس فى الشر والإثم، وأصبح بذلك من الخاسرين فى دينه ومن الخاسرين فى دنياه فقد زال عنه الهدوء، وزالت عنه السكينة وكانت جثة أخيه أمامه ينغص منظرها عليه حياته، ولا يدرى ماذا يفعل بها؟ فبعث الله غرابًا يحفر فى الأرض ليدفن غرابًا آخر ميتا، ففعل قابيل مثلما فعل الغراب ليخفى بذلك آثار الجريمة.

ما سبب هذه الجريمة: إن ظاهر النص القرآنى يفيد أن السبب هو حقد النفوس الخبيثة على النفوس الصافية الطاهرة. وهو سبب يوجد فى كل زمان ومكان، وهو سبب عام يدخل فى نطاقه أسباب خاصة.

ولقد التمس بعض أسلافنا سببًا خاصًا يدخل فى نطاق السبب العام، وهو أن هابيل لما أراد - على سنة الزواج عندهم - أن يتزوج تلك التى ولدت مع قابيل فى بطن واحدة، وكانت جميلة فاتنة، أبى عليه ذلك قابيل مدعيًا أنه أحق لأنه أقرب إليها من هابيل، فكان التنافس وكان النزاع، وكان القتل، وهذا السبب أيضًا سبب يقع فى كل زمان ومكان إذ يترك فيه

القاتل نفسه مسرحًا للسر، ومجالا لتسويل إبليس، فيرتكب الإثم ويطرد بذلك من رحمة الله.

﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذابًا عظيمًا﴾ (النساء آية: ٩٣).

obeikandl.com